

غفور رحيم.. لكنّه شديد العقاب



مرجاء

«اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي فَأَعْجزَ عَنْهَا. ولا إِلَى النَّاسِ فَيُظْفِرُوا بِي. ولا تُخَيِّبْنِي وَأنا أَرْجوك. ولا تُعَذِّبْنِي وَأنا أَدْعوك.».

ميزان خاطيء

كثيراً ما يَتَمَتَّرِسُ المقيمون على معصية ما، خاصة إذا كانت مُعْلَنَةً أو مجاهراً بها.. بقولهم:
إنَّ اِغْفُورُ رَحِيم!

وهم بذلك يتهاونون فيما يفعلونه، بل ربّما يُبْرِّرُونَهُ، بل ربّما يُؤَكِّدُونَ عدم توبتهم أو أنّهم يتمادون في ما هم عليه! ولو أنصف هؤلاء أنفسهم، وكانوا صادقين، لذكروا أنّ اِشْدِيدَ عِقَابِ أَيْضاً، إلى جانب أنّهُ غَفُورٌ رَحِيم.

قال اِغْفُورُ رَحِيمُ (المائدة/ 98). فإلى متى يبقى الاستخفاف والتبرير شائعين، اتِّكَّالاً على «بعض الكتاب» وإغفالاً «لبعض الآخر»؟ فكما أنّ الشاهد سبحانه هو الحاكم، كذلك الغفور الرحيم هو شديد العقاب.

إنَّ بعض الناس يُصِيبُهُمُ الغرور فيظنّون أنّهم مهما فعلوا من المعاصي، فإنَّ عفو اِغْفُورُ رَحِيمُ ينتظرهم، فيتمادون فيما هم عليه، ويتحرّون تبريرات واهية وحججاً باطلة، ويستخفّون بالموعظة والوعيد. حتى يُدْرِكُهُمُ الأجل الذي لا بدّ مدرّكهم بغتة وهم لا يشعرون. وساعتئذٍ لن يجدوا إلا ما قدّموا، ولن يحصدوا إلا ما زرعوا.. فتكون اِغْفُورُ رَحِيمُ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اِغْفُورُ رَحِيمُ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اِغْفُورُ رَحِيمُ السَّرِيعُ اِغْفُورُ رَحِيمُ (النور/ 39). هؤلاء اِغْفُورُ رَحِيمُ الذِّكْرُ وَكَانُوا قَوْمًا

غضبه لا يمنع رحمته، ورحمته لا تمنع غضبه

عدالة □ عز وجل، التي تؤمن بها، تعني لنا: أن ربنا لا يظلم أحداً. فهو سبحانه جعل نتيجة موازية وحصيلة آتية لكل فعل، فالحلال وراءه حساب، والحرام وراءه عقاب، فهو تعالى يرضى عند الطاعة، ولا يُنتظر منه غير ذلك، ويغضب عند المعصية، ولا يُنتظر منه غير ذلك. قال تعالى: □ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ □ (فصلت/ 43). وقال جل جلاله: □ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ □ (الأعراف/ 167).

والمنصف المتأمل يرى أن عقابه سبحانه عدل ورحمة ورأفة بالعباد كي لا ينقادوا في ما يُجلب الذنوب. قال أمير المؤمنين علي (ع): «إن □ سبحانه وضع الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، زيادة (منعاً لهم عن المعاصي) لعباده عن نعمته، وحياسةً لهم إلى جذته (جاءه من كل جانب ليسوقه إلى الجذة)» [1]. وورد أيضاً في صفاته جل في ملكه: «لا يشغله غضب عن رحمة، ولا تؤليه رحمة عن عقاب» [2].

سبحانه وتعالى، غضبه لا يمنع رحمة، ورحمته لا تحجب غضباً

سبعة عشرة مرّة! سيقول قائل: لا تُقنطوا الناس من رحمة □، ونقول له: وصلنا إلى مرحلة يأمن فيها الكثيرون من غضب □ تعالى فيتجاهر بل يتفاخر بالإصرار، متناسياً أن غضب □ سبحانه هو عدل ورحمته، فكما لا يجوز تئيس الناس، كذلك لا يجوز إغراؤهم.

تبقى معلومة يجب أن تُعلم وتُنشر: هل نعلم أنَّهُ ذُكر في القرآن الكريم أن □ سبحانه □ شد يدُ العِقَابِ □ (الأنفال/ 13) و □ سرِيعُ العِقَابِ □ (الأنعام/ 165) و □ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ □ (فصلت/ 43) حوالي سبعة عشرة مرّة؟! □

هذا عدا عن صيغٍ مختلفة تُناسب المضمون، من قبيل □ فَحَقَّ عِقَابِ □ (ص/ 14) و □ فَأَخَذَتْهُمُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ □ (غافر/ 5).

التجرؤ على □ سبحانه

أصبحت لدينا طبقة تتجرؤ على □ سبحانه في إقدامها على المعاصي، وبعضها يقوم بذلك في مناسبات أو ستار ديني، «ومَن أصرَّ على ذنبه إجتراً على سخط ربِّه» [3].

والتجرؤ هو من الوقاحة المستوجبة للغضب الإلهي، وأمَّا المُشْفِقُ الخائف، فهو الذي يرجو رحمة ربِّه. فتعالى □ من قوي ما أحلمه، واغترَّ عبدٌ فقيرٌ من ضعيفٍ ما أجرأه!

وأثناء كتابة هذه الكلمات نقلت جريدة «الأخبار» في 5/10/2007 عن أحد النواب الأمريكيين عن ولاية «نيبراسكا»، نقلت مطالبته بمحاكمة □ (نعوذ با □ من غضبه) مُحملاً إياه مسؤولية الإرهاب والفيضان والأعاصير والزلازل والجوع وقتل الملايين!!!

إلى هذا المستوى وصلت الوقاحة والجرأة في زمن التقذُّم والحضارة!

العقوبة

فمعنى العقوبة والمعاقبة يختص بالعذاب، وأصلها في المعنى «العقاب»، وهو مؤخر الرّجل.

وعقوب الشيء، وعاقبة الأمر، ما يلي من آخره. و«التعقيب» هو الإتيان بشيء بعد شيء، كتعقيبات الصلاة مثلاً. «ومعاقبة الغير» أن تأتي بما يسوؤه بعد أن أتى أو فعل أو قال ما يسوؤك، فهي المجازاة والمكافأة بالعذاب، أو إذا شئت قُلْ هي معاملة بالمثل.

قال [رَبِّي جَلَّ جلاله:] وَإِنَّ عَاقِبَتَكُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ [(النحل/ 126). فما من عقاب توعّدّه [سبحانه عباده إلاّ نتيجة سوءٍ صدر عنهم، فخيرهُ عزّ وجلّ نازل، وشرّنا إليه صاعد.

ولا يكون العقاب لأهل الطاعة والخير. وأمّا أهل الضلال والانحراف من أهل الدنيا الذين يتوعّدّون في غفلتهم، ويستغرقون في المعاصي والذنوب، بظنّهم أنّهم ينالون جاهاً وعزّة.. فهؤلاء لا يُقيمون وزناً إلاّ لحطام الدنيا الزائل، ولا يُؤمنون بالوعد والوعيد وأخبار النبوة من البعث والحساب والجنّة والنار.

إنّ هذه النوعية من البشر، هي نوعية مغرورة بما يُعامل به الإنسان على غفلته وظلمه. قال [سبحانه:] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ [(فاطر/ 5).

ومن جملة الغرور الذي يحسن بالمؤمن الفطن التنبّه منه واجتنابه، اعتقاده بالعفو والرحمة دون غيره، فيأخذ بالرجاء ويُهمل الخوف، مع أنّ الإيمان لا يكتمل إلاّ بهما .

ورد في دعاء الافتتاح: «وأيقنت أنّك أنتَ أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع الذّكال والذّقمة...».

وهو العفوُّ الغفور

وأمّا عفو [عزّ وجلّ وتجاوزه عن الخطيئة وصفحه عن الظلم وستره على قبيح العمل وحلمه عن كثير الجرم وتعمّد الخطأ.. كلّ هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للطمع والتمادي. وكذلك تحبّب [عزّ وجلّ وتودّدّه لا يجوز أن يُقابل بالتباغض والاستعلاء معاني وردت في دعاء الافتتاح.. سبحانه هو ربّي الكريم «لا يزداد على كثرة الذنوب إلاّ عفواً وصفحاً». هذا هو وهذا شأنه وهذا قدسه سبحانه الغني الذي ليس فوقه إلهٌ يُخشى، وليس دونه مَلَكٌ يُتّقى، وليس له وزيرٌ يُؤتى، وليس له حاجبٌ يُرشى، ولا يزداد على كثرة السؤال إلاّ كرماً وجوداً من الدُّعاء. بعد صلاة فاطمة (ع) في مفاتيح الجنان، ص79.

سبحانه هو العوّاد على الخطّائين بعد عكوفهم على المحارم، وجود عليهم بالعفو والمغفرة.

لمن تكون الرحمة؟

الرحمة الإلهية التي تشمل المؤمن والكافر، المتدين وغيره، المطيع وغيره.. إنّما هي سبيل رحمة [سبحانه التي يُبديّنها للعباد جميعاً ليدلّجوا بها (وهي جملة الطاعات والقربات.. وبديهي أن لا تكون المحرّسات والمنكرات). وقد يفعلون وقد لا يفعلون، بل قد يُخالفون، بل قد يمتطون الموبقات ولا يتوبون.. فكيف لهؤلاء أن يتكلّموا عن ضمانهم للرحمة ولم يسلكوا مسالكها؟!

كلّ هذا بالنسبة «للرحمن».. أمّا «الرحيم» فهي تبيان سبيل الرحمة الخاصة بالمؤمن لسعادة

آخرتهم ولقاء ربهم.

فهل راكب المنكر والقائم على الحرام والمُغضب لربه تعالى والمتهاون بحقه والمتجاهر بذلك.. والمتحدّي، أو المستنكف عن الأوبة والهارب من التوبة.. والمستخف بعقاب الله عز وجل.. هل هذا ممن يعدُّ نفسه بأثار وبركات «الرحيمية» الإلهية؟

قال الله عز وجل: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف/ 156). فسِعَتْها لكل شيء، بمعنى إظهارها وتبيانها، بداة أن تُدَّيِّع وتُسَلِّك ليحصل الفوز. وأمّا المتقون الذين ستُكتب لهم، فلهم طُرُقهم ومناهجهم في الحياة، ومن أبسطها، اجتناب معصية الله عز وجل. ثم بعد كل هذا، صحيح لقائل أن يقول: إن الله غفورٌ رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك.. بتوفيقك يفوز الفائزون، ويتوب التائبون، ويعبدك العابدون، ويتسديك يصلح الصالحون المحسنون المخبتون، العابدون لك، الخائفون منك.. وبخذلانك خسر المبتلون وهلك الظالمون، وغفل الغافلون. نعوذ بالله تعالى من الخسارة والظلم والغفلة. ﴿لَوْ يُوَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَبُوا لَعَجَبًا لَّهُمُ الْعَذَابُ﴾ بلّ لهم موعدهم لأن يجردوا من دونه موعدهم * وتلك القرى أهلكناهم لَمَّا ظلموا وجعلنا ليمهملكمهم موعدهم (الكهف/ 58-59).

الطريق إلى العفو والمغفرة

والمقصود بالعفو الذي يُنسب إلى الله تعالى، هو أخذ ما عند العبد من ذنب، وتركه بلا ذنب. وأمّا المغفرة (وهو الستر)، فبعد أخذ الذنب، يُستر عليه فلا يظهر ذنب المذنب، لا عن نفسه ولا عن غيره [4].

قال الله عز وجل: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ (البقرة/ 286). وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ (النساء/ 99).

ومن أراد نيل العفو الإلهي والمغفرة، لا مفرّ له من التقرُّب والزلفي، تعقبها التوبة وعتاب النفس والمؤاخاة، وليُعرض عن الانحراف. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِإِلَهِهِ يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ﴾ (التغابن/ 11). فلا بدّ من المبادرة من العبد لإزالة المانع ورفع المناهي لينال العفو والمغفرة.

فالشرك موت والمعاصي ظلمات ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور/ 40).

فَمَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَسْلَكَ التَّائِبِينَ الْمُعْتَذِرِينَ، لا حياة له ولا نور، والمؤمن المغفور له، له حياة ونور بفضل سلوك طريق المغفرة. قال الله سبحانه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بِيَدَيْنِهِمْ﴾ (التحریم/ 8).

فهل يستوي المؤمنون الملتزمون مع غيرهم؟ وهل التائبون كغيرهم؟ وهل المعتذرون كغيرهم؟

وهل أهل الإصرار والاعتداد، الغافلون عن أن الله تعالى شديد العقاب.. هل يُعتبرون كغيرهم؟!

الأکید أن هؤلاء ليسوا كهؤلاء.. لا يستوون.

﴿أَفَمَنْ كَانَتْ لَهُ حِطَّةٌ مَّثَلُ شَجَرٍ لَّيْسَ لَهُ شِجَارَةٌ تَمْرًا وَلَا نَخْلٌ وَلَا يَنْبُتُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يُؤْتِي الثَّمَرَ أَفَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنعام/ 122).

هل الذي ينال الرضى الإلهي، كغيره من الغافلين المتكبرين؟

﴿أَوْ مَنْ كَانَتْ لَهُ حِطَّةٌ مَّثَلُ شَجَرٍ لَّيْسَ لَهُ شِجَارَةٌ تَمْرًا وَلَا نَخْلٌ وَلَا يَنْبُتُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يُؤْتِي الثَّمَرَ أَفَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنعام/ 122).

وبعد كل هذا، بات واضحاً أين هي طريق العفو والمغفرة. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَا يَذَّكَّرُ﴾ (الكهف/ 57).

سبيل رحمة الله تعالى

مَنْ رَجَى رَحْمَةَ اللَّهِ وَطَمَعَ بِهَا، سَعَى إِلَيْهَا بِمَا يَجِبُهَا لِيَفُوزَ بِهَا. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَصِيَّةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ عَنْ أَنَّ الْمَتَكَبِّرِينَ لَا يَنَالُونَ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ... إِلَى أَنْ يَقُولَ وَكَقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ: «وَأَنَّ مَا مَجَزَى بِمَا أَسْلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ» [5]. أَمَّا صَاحِبُ الرَّجَاءِ الْكَاذِبِ فَقَدْ «كَذَّبَ، وَالْعَظِيمُ، مَا بَالَهُ لَا يَتَّبِعُ رَجَاؤَهُ فِي عَمَلِهِ؟!» [6]. وَالْعَجَبُ أَنْ لَا يَظْهَرُ هَذَا الرَّجَاءُ فِي صُنْعِهِ، وَالْأَعْجَبُ أَنَّ «إِنْ هُوَ خَافَ عِبَادًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضَمَارًا وَوَعْدًا» (مَا لَا يُرْجَى تَحْصِيلُهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالِدْيُونِ) [7].

المؤمن الحق بين الخوف والرجاء

المؤمن الصادق هو المتفكّر دائماً بما مضى من عمل، وبما يأتي، فهو على حذر دائم من انقضاء عمره دون أن يترك أثراً صالحاً وتوبة نصوحة. فهو «لَا يُصْبِحُ إِلَّا خَائِفاً، وَإِنْ كَانَ مُحْسِناً، وَلَا يُمَسِّي إِلَّا خَائِفاً، وَإِنْ كَانَ مُحْسِناً، لِأَنَّه بَيْنَ أَمْرَيْنِ: بَيْنَ وَقْتٍ قَدْ مَضَى، لَا يَدْرِي مَا آتِي صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ اقْتَرَبَ لَا يَدْرِي مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْهَلَكَاتِ» [8]. وهو، وَإِنْ اتَّكَلَ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَعَمَلٌ قَلِيلاً، إِلَّا أَنَّهُ لَوْ عَلِمَ قَدْرَ غَضَبِ اللَّهِ لَطَنَّ بِأَنْ لَا يَنْجُو مضمون حديث شريف.

وعن الإمام الباقر (ع): «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ: نُورٌ خَيْفَةٌ، وَنُورٌ رَجَاءٌ، لَوْ وَزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَوْ وَزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» [9]. فهو في خوفه كالمشرف على النار، وفي رجائه كأنه بات من أهل الجنة مضمون حديث عن الإمام الصادق (ع)

وبكلمة واحدة لكل ما تقدّم، هي قوله سبحانه: ﴿يَذَرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر/ 9).

[1]- نهج البلاغة، الحكمة 368.

[2]- المصدر نفسه، الخطبة 195.

[3] - ميزان الحكمة، محمّدي الري شهري، ج3، رقم الحديث5268.

[4] - تفسير الميزان، الطباطبائي، ج4، ص54.

[5] - نهج البلاغة، كتاب21.

[6] - المصدر نفسه، الخطبة160.

[7] - المصدر نفسه.

[8] - بحار الأنوار، العلاّمة المجلسي، ج70، ص382.

[9] - الكافي الشريف، ج2، ص67.